

الصراحة تمقت الادعاء

الأرشمندريت ثيوفيلوس ليمونتزيس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

الأخلاقية (Moralism) هي مثال نموذجي للنفاق. إن النفاق يلوّث حتى الأفعال الفاضلة، ويستخدم القديس يوحنا السلمي حادثة مرحلة لتحليل هذا الجانب الخادع من الحياة الروحية، الذي غالباً ما نشجعه نحن المؤمنون. يقول القديس أننا في بعض الأحيان عندما نسحب الماء من البئر نكون قد جذبنا ضفدعاً معه دون أن ندرك. بالطريقة نفسها، بينما نزرع الفضائل، نخدم الشرور المتشابكة معها رغم أنها غير ظاهرة. إنها بالضبط "غطرسة الفضيلة" التي يمكن العثور عليها في العديد من الأشخاص المتدينين. لكن عندما تُكتسب الفضائل بوعي وبحسب إرادة الله، بعيداً عن النفاق وكل جهد لإرضاء الآخرين، فإننا نُقاد إلى تعزيز التواضع والهدوء (القديس يوحنا الدمشقي).

إذا قررنا معرفة الحقيقة عن أنفسنا والآخرين، إذا قررنا التوقف عن بناء "أنا" مُتخَيِّلة للتعبير عن محيطنا الاجتماعي، فعلينا أن ندرك أنه ينبغي لنا أن نكون صريحين وصادقين. الصراحة تمقت الادعاء. التظاهر يدمر وحدة الشخصية لأنه يجعلنا نبدو مختلفين ظاهرياً عما نحن عليه بالفعل. إنه يشوّه جوهر الحياة الروحية لأنه ينمي محبة الذات والرغبة ومحبة اللذة.

بقدر ما يحب الناس أنفسهم، يزداد اعتمادهم على آراء من حولهم. لكن المسيح يعلمنا نبذ الأكاذيب والأناية وكل تلك الأشكال الخارجية من السلوك الصالح وتبرير الذات. وعلى الرغم من أنه يمكن التغاضي عن الإغفالات والضعف، إلا أنه لا يمكن التغاضي عن النفاق. لذا، إذا قررت أن تعيش بشرف وصراحة، فعليك فحص المتناقضات لديك ومواجهتها بصدق وبدون أذعار. يأتي علاج النفاق من معرفة الذات التي تقود إلى التوبة التي تعادل التغيير الوجودي.

أنت مدعو للشروع في مسار معرفة الذات، أي أن تفهم في قلبك الطبيعة الحقيقية لمرضك الروحي، لأن الذين لم يروا ظلامهم الداخلي لا يبحثون عن النور.

نحن مدعوون إلى التجرد من إنجازاتنا المفتخرة حتى نتمكن من استيعاب الجهد المبذول على طريق التوبة لتنمية الشخص الداخلي. كن أكيداً أن اللطف والتأدب حالتان داخليتان في عالمك الروحي، وليساً أفنعة اصطناعية لارتدائها من أجل ترك انطباع جيد لدى الآخرين.

نحن مطالبون بخلع قناع الفضيلة وارتداء ذاتنا الحقيقية، لأن "الله يراقب قلبنا ويفحص محتوياته"، كما يعلمنا القديس باييسوس الأثوسي. لتحقيق ذلك، يجب أن تدرك أولاً أن قيمة حياتك لا تعتمد على الآراء المختلفة التي لدى الآخرين عنك، ولكن على شهادة ضميرك الداخلية. حرّر نفسك من كل الروابط والأوهام القصيرة العمر في العالم الحالي، حتى تفهم أنك لست بحاجة إلى استيعابها، كما لا حاجة لك لكسب القبول العام والثناء.

احتضن روعة البساطة المطلقة. كن مخلصاً ومباشراً في جميع جوانب حياتك. هذا يفترض جهداً وكفاحاً وممارسة روحية لأنه، حتى ولو نبع شيء حقيقي من داخلنا في بعض الأحيان، فإن ذواتنا الحقيقية لا تظهر إلا من خلال آلام ممارسة النسك الروحي والجسدي. هذا هو بالضبط الصراع المستمر الذي لا يرحم والذي يخاض في نفوسنا الداخلية: إنه الصراع بين الشخصية الصادقة والموقف الزائف والمنافق. إذاً عليك أن تهدف إلى تنمية نفسك الداخلية، بدلاً من التظاهر أنك تحب الذين يتظاهرون بأنهم يحبونك. لأن الناس الروحيين ليسوا "لائقين ومناسبين"، لكنهم كما يريد الله أن يكونوا. إذ نتحرر من الأنانية ووسواس التقاليد القهري، نكون مطالبين بزراعة الفضائل؛ لا لنصبح محبوبين ممن حولنا، بل لخدمة محبة الله ومحبة الآخرين فقط.

لذا فلنتجنب الانزلاق إلى النفاق والسلوك المُتَصَنِّع. فلنسمح لله أن يغمر ويجتاح كياننا. فلنعالج ذواتنا من الانهماك بممارسات التقشف واحترام الوصايا، حتى نتمكن من التقدم نحو محبة إخواننا وأخواتنا ومن هناك نحو محبة الله، حتى نصبح لا نرضي الآخرين بل الله. إذا أصبحنا مُرضيين لله، فمن المؤكد أننا سنرضي الآخرين أيضاً، لأن الصالحين يشبهون مدينة مبنية على تلي، كما يؤكد ربنا نفسه: "لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُخْفَى مَدِينَةٌ مَوْضُوعَةٌ عَلَى جَبَلٍ" (متى ١٤:٥).

Source: Sincerity: Abhorrence of Pretense. Pemptousia. 30 May 2022.
<https://pemptousia.com/2022/05/sincerity-abhorrence-of-pretense/>